

﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ [يونس: 17]

❁ مناسبة الآية لما قبلها:

لما التمسوا من رسول الله ﷺ قرآنًا يذكُرُهُ من عند نفسه، ونسبوه إلى أنه إنما يأتي بهذا القرآن من عند نفسه، ثم إنه أقام البرهان القاهر الظاهر على أن ذلك باطل، وأن هذا القرآن ليس إلا بوحى الله تعالى وتنزيله، فعند هذا قال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، والمراد أن هذا القرآن لو لم يكن من عند الله، لما كان في الدنيا أحدٌ أظلم على نفسه مني، حيث افتريته على الله، ولما أقمت الدلالة على أنه ليس الأمر كذلك؛ بل هو بوحى من الله تعالى وجب أن يقال: إنه ليس في الدنيا أحدٌ أجهل ولا أظلم على نفسه منكم، حيث كذبتُم بآيات الله فصرتم في عداد المجرمين الذين لا يُفلحون⁽¹⁾، ف"مناسبة هذه الآية لما قبلها، أنها تكشف عن افتراء المشركين على الله وتكذيبهم بآياته"⁽²⁾.

العلاقة بين
تبرئة الرسول
من اختلاقي
القرآن، وكونه
أعظم الظلم،
وأقبح الجرم

❁ شرح المفردات:

(1) ﴿أَظْلَمُ﴾: الظلمة: عدم النور، وجمعها ظلمات، قال تعالى: ﴿يُجْرِيهِمْ مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ [البقرة: 257]، ويعبرُ بها عن الجهل والشرك والفسق والنفاق، فلا أحدٌ أظلم من أهل هذه الصفات. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، والظلم: يُقال في مجاوزة الحق، وفيما يكثر وفيما يقل من التجاوز، ولهذا يستعمل في الذنب

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/226.

(2) عبد الكريم الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 6/975.

الكبير، وفي الذنب الصغير⁽¹⁾. ومن هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: لا أحد أظلم ولا أشد إجرامًا ممن تقول على الله، وزعم أن الله أرسله، ولم يكن كذلك، أو بقول أو بعمل تجاوز فيه حدود الله، فكل ذلك ظلم⁽²⁾.

(2) ﴿افْتَرَى﴾: الفَرَى: رقع الجلد للخرز والإصلاح، والإفراء للإفساد، والافتراء فيهما، وفي الإفساد أكثر، وكذلك استعمل في القرآن في الكذب والشرك والظلم، نحو: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ [مريم: 27]؛ أي: كذبًا عظيمًا وعجيبًا⁽³⁾، ومن هذا قوله تعالى: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ أي: كذب على الله بنسبة القرآن إلى غير الله تعالى⁽⁴⁾.

(3) كذب: الكذب ضد الصدق، ويُقال في المقال والفعال، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الشع: 105]، وقد يكون الكذب في الاعتقاد، كحال المنافقين الذين كذبوا في اعتقادهم لا في مقالهم، ومقالهم كان صدقًا، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1]، ويُقال للمبالغة في الكذب: رجل كذاب، وكذوب⁽⁵⁾، وقوله تعالى: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ أي: نسب القرآن إلى غير الله، وقال: إن آيات الله ليست من عند الله، والمفترون على الله الكذب بذلك هم المشركون نسبوا إلى الله الشريك والولد، والمكذبون بآيات الله هم أهل الكتاب⁽⁶⁾، ويمكن أن يكون كلا الفريقين على ذلك في الافتراء على الله وتكذيب آياته فإن من افتري على الله الكذب كذب بالقرآن وبآياته، وأهل الكتاب لما كفروا بنبوة محمد ﷺ فقد كذبوا بالقرآن وبآياته.

(4) ﴿لَا يُفْلِحُ﴾: فَلَاحٌ: أصل يدل على فوز وبقاء، الفاء واللام والحاء أصلان صحيحان، أحدهما يدل على شق، والآخر على فوز وبقاء. فالأول: فَلَحْتُ الأرض: شَقَّيْتُهَا. والثاني: الفلاح: وهو الظفر والبقاء والفوز، قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر: 1] وقول

(1) الزاغ، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (ظلم).

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/373، والشوكاني، فتح القدير: 2/608.

(3) أبو عبيدة، مجاز القرآن: 2/6، وابن المبارك، غريب القرآن وتفسيره، ص: 238، والزاغ، المفردات: (فري).

(4) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/226، والشوكاني، فتح القدير: 2/608.

(5) الزاغ، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (كذب).

(6) الرّمخشري، الكشف: 2/230، والشوكاني، فتح القدير: 2/608.

(7) ابن فارس، مقاييس اللغة، والزاغ، المفردات: (فلح).

النَّاسِ: لَا يُفْلِحُ فَلَانٌ بَعْدَهَا، يُرِيدُونَ بَعْدَ فَعَلْتِهِ الَّتِي فَعَلَ أَوْ بَعْدَ هَذِهِ الْمَرَّةِ⁽¹⁾، وَفِي الْقُرْآنِ قَوْلُهُ: ﴿وَيَكَاذِبُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾⁽²⁾ [الْقَصص: 82]، وَبِهَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرَ جَاءَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾؛ أَي: لَا يَفْزَحُونَ بِمَطْلُوبٍ وَبُغْيَةٍ وَلَا يَفُوزُونَ بِخَيْرٍ⁽³⁾.

(5) ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾: أَصْلُ الْجَرَمِ: قَطْعُ الثَّمَرَةِ عَنِ الشَّجَرِ، يُقَالُ: تَمَرٌ جَرِيمٌ؛ أَي: مَقْطُوعٌ. وَأَجْرَمَ: صَارَ ذَا جَرَمٍ، نَحْوُ: أَتَمَرَ وَالْبَنَ، وَاسْتَعِيرَ لِكُلِّ اكْتِسَابٍ مَكْرُوهٍ، وَمِنْهُ الْإِجْرَامُ. وَالْجَرِيمَةُ: الذَّنْبُ، وَارْتِكَابُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ أَوْ كَرِهَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ﴾⁽⁴⁾ [الطَّافِينَ: 29]، وَمِنْهُ قَوْلُهُ هُنَا: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾.

وَأَعْظَمُ الْجُرْمِ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَالتَّكْذِيبُ بِآيَاتِهِ بَعْدَ بَيَانِهَا؛ أَي: لَا يَفُوزُونَ بِسَبَبِ شَرِكِهِمْ وَتَكْذِيبِهِمْ بِأَيِّ خَيْرٍ، فَمَا اعْتَقَدُوهُ وَقَالُوهُ وَعَمِلُوهُ مِمَّا سَبَقَ أَعْظَمُ جُرْمٍ عَلَى اللَّهِ، وَأَكْثَرُ اسْتِشْرَافٍ إِلَى عَذَابِهِ⁽⁵⁾.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيَّةُ:

يَخْبِرُ اللَّهُ تَعَالَى فِي بَلِيغِ نَظْمِهِ أَنَّ: لَا أَحَدًا أَظْلَمُ وَلَا أَعْتَى وَلَا أَشَدُّ إِجْرَامًا، مِمَّنْ تَقُولُ عَلَى اللَّهِ، وَزَعَمَ أَنَّ اللَّهَ أَرْسَلَهُ، وَلَمْ يَكُنْ كَذَلِكَ، فَلَيْسَ أَحَدٌ أَكْبَرَ جُرْمًا وَلَا أَعْظَمَ ظُلْمًا مِنْ هَذَا، وَمِثْلُ هَذَا لَا يَخْفَى أَمْرُهُ عَلَى الْأَغْيَاءِ فَكَيْفَ يُشْتَبَهُ حَالُ هَذَا بِالْأَنْبِيَاءِ؟ فَإِنَّ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ صَادِقًا أَوْ كَاذِبًا، فَلَا بُدَّ أَنَّ اللَّهَ يَنْصِبُ عَلَيْهِ مِنَ الْأَدَلَّةِ عَلَى بَرِّهِ أَوْ فُجُورِهِ مَا هُوَ أَظْهَرُ مِنَ الشَّمْسِ، وَلَمَّا كَذَّبَ أَوْلَيْكَ الْمُشْرِكُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ، فَقَدْ تَعَيَّنَ فِيهِمُ الظُّلْمُ، وَلَنْ يَنَالُوا الْفَلَاحَ

لا أَظْلَمَ مِمَّنْ
كَذَّبَ عَلَى اللَّهِ أَوْ
كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، وَلَا
أَشَدَّ إِجْرَامًا مِنْهُ

(1) ابْنُ سَيِّدِهِ، الْخَصَصَ: 5/169.

(2) ابْنُ عَطِيَّةٍ، الْحَزْرُ الْوَجِيزُ: 3/111، وَالشُّوْكَانِيُّ، فَتْحُ الْقَدِيرِ: 2/608.

(3) ابْنُ فَارَسٍ، مَقَايِيسُ اللَّغَةِ، وَالزَّائِبُ، لِلْفُرْدَاتِ: (جَرَمَ).

(4) ابْنُ عَطِيَّةٍ، الْحَزْرُ الْوَجِيزُ: 3/111، وَالبَقَاعِيُّ، نَظْمُ الدُّرَرِ: 9/90.

وَالظَّالِمُونَ بِمَا يَتَطَلَّعُونَ إِلَيْهِ مِنْ وَرَاءِ كَذِبِهِمْ وَكُفْرِهِمْ، وَالظَّالِمُونَ هُمُ الْمَجْرُمُونَ الْمُرْتَكِبُونَ لِأَشْنَعِ الذُّنُوبِ وَأَقْبَحِهَا، وَالتَّيُّ سَيَأْخُذُهُمُ اللَّهُ بِهَا إِلَى عَذَابِ النَّارِ وَيَسَّ الْمَصِيرَ⁽¹⁾.

❖ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

موقع الجملة البياني في: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى﴾:

الشُّرْكُ أَعْظَمُ
الظُّلْمِ، وَعَنْهُ
يَتَفَرَّغُ الْاِفْتِرَاءُ
عَلَى اللَّهِ
وَالْتَّكْذِيبُ بِآيَاتِهِ

لَمَّا قَامَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ بِمَا لَا قَبْلَ لَهُمْ بِالتَّنْصُلِ مِنْهُ، أَعْقَبَ ذَلِكَ بِالتَّفْرِيعِ عَلَى افْتِرَائِهِمُ الْكَذِبَ، وَذَلِكَ مِمَّا عُرِفَ مِنْ أَحْوَالِهِمْ مِنْ اتِّخَاذِهِمُ الشُّرْكَاءَ لَهُ، كَمَا أَشَارَ إِلَيْهِ قَوْلُهُ مِنْ قَبْلُ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا﴾: أَي: أَشْرَكُوا، إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِنَنْظُرَ كَيْفَ نَعْمَلُونَ﴾ [يونس: 13، 14]، وَتَكْذِيبِهِمْ بِآيَاتِ اللَّهِ فِي قَوْلِهِمْ: ﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ﴾، فَالشُّرْكُ بِاللَّهِ ظُلْمٌ، وَالْاِفْتِرَاءُ عَلَى اللَّهِ ظُلْمٌ، وَالتَّكْذِيبُ بِآيَاتِهِ ظُلْمٌ، إِذْ أَسَاسُ ذَلِكَ كُلِّهِ الشُّرْكُ، فَهُوَ أَظْلَمُ الظُّلْمِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]، وَمَا يَتَّبِعُهُ وَيَتَفَرَّغُ عَنْهُ هُوَ كَذَلِكَ⁽²⁾.

دلالة الفاء في: ﴿فَمَنْ﴾:

مُجَارَاةُ الْخَصِمِ
حَتَّى يُسَكَّتَ
بِالْحُجَّةِ
الْقَائِمَةِ،
وَالدَّلِيلِ
الْمُفْجِعِ

اِفْتَتَحَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بِالفاء التَّفْرِيعِيَّةِ، فَلَمَّا عَرَّضُوا بِنَسْبَتِهِ إِلَى الْاِفْتِرَاءِ عَلَى اللَّهِ حِينَ قَالُوا: ﴿أَنْتَ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَذَا﴾ [يونس: 15]، وَصَرَّحُوا بِنَفْيِ أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، فَلَمَّا أَقَامَ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ، بَانَ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَأَنَّهُ مَا يَكُونُ لَهُ أَنْ يَأْتِيَ بِهِ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِهِ، فَرَّغَ عَلَيْهِ أَنَّ الْمُفْتَرِيَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَالْمُكْذِّبِينَ بِآيَاتِهِ، كِلَاهُمَا أَظْلَمُ النَّاسِ، لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْهُمَا، وَذَلِكَ مِنْ مُجَارَاةِ الْخَصِمِ لِيَعْتَرِ: يُخَيِّلُ إِلَيْهِ مِنَ الْكَلَامِ أَنَّهُ إِنْصَافٌ بَيْنَهُمَا، فَإِذَا حَصَّصَ

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 2/273، والسَّعْدِيُّ، تيسير الكريم الرَّحْمَن، ص: 311.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/123.

الحق وظهر المعنى وُجِدَ انصبأه على الخصم وحده، فَأَسْقَطَ بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَفْحَمَهُ⁽¹⁾.

دلالة الاستفهام في: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾:

جاء الاستفهام في قوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾؛ للدلالة على أَنَّ أَحَدَ الْأَمْرَيْنِ أَشَدُّ الظُّلْمِ؛ لأنه اعتداءً على الخالق بالكذب عليه وبتكذيب آياته بعد بيانها، وذلك أعظم جرم على الله، وأكثر استشرافاً إلى عذابه⁽²⁾، "والاستفهام في قوله: فَمَنْ أَظْلَمُ لِلإنكار والنفي؛ أي: لا أحد أشدُّ ظُلماً عند الله، وأجدرُ بعقابه وغضبه، مِمَّنِ افترى عليه الكذب، بأن نسب إليه سبحانه ما هو بريء منه، أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ وحججه التي أنزلها لتأييد رسله"⁽³⁾.

أشدُّ الظُّلْمِ
الكذب على
الله، أو التكذيب
بهده

إذا كَانَ سَبْكُ التَّرْكِيبِ مُفِيدًا لَإِنْكَارِ أَنْ يَكُونَ أَحَدٌ أَظْلَمَ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ مِنْ غَيْرِ تَعَرُّضٍ لَإِنْكَارِ الْمَسَاوَةِ وَنَفْيِهَا، فَإِنَّهُ إِذَا قِيلَ: مَنْ أَفْضَلُ مِنْ فُلَانٍ؟ أَوْ لَا أَحَدٌ أَعْلَمُ مِنْهُ، يُفْهَمُ حَتْمًا أَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ فَاضِلٍ، وَأَعْلَمُ مِنْ كُلِّ عَالِمٍ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى هُنَا قَائِمًا عَلَى الْجَعْدِ؛ أي: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْ أَيِّ ظَالِمٍ⁽⁴⁾.

لا أحد أَظْلَمَ مِنْ
كلِّ ظالمٍ افترى
على الله كذبًا

بلادة النفي والتقرير بالاستفهام:

في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ استفهامٌ وتقريرٌ؛ أي: لَا أَحَدٌ أَظْلَمُ مِنْ هَذَيْنِ الصَّنَفَيْنِ، فَذَلِكَ أَعْظَمُ جُرْمٍ عَلَى اللَّهِ، وَإِنَّمَا كَانَ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ أَشَدَّ الظُّلْمِ؛ لأنه اعتداءً على الخالق بإنكار التنزيل الإلهي لهذا القرآن، فهو أَعْتَى الْإِفْتِرَاءَاتِ وَأَشْنَعُهَا مَالًا⁽⁵⁾.

أشار الاستفهام
والتقرير على
عظيم جرم إنكار
التنزيل

(1) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/644، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/123.

(2) ابن عطية: الحزر الوجيز: 3/111، وأبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/644.

(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 7/42.

(4) أبو الشعود، إرشاد العقل السليم: 2/644.

(5) ابن عطية، الحزر الوجيز: 3/111، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/124.

دلالة صيغة (أَفْعَل) في: ﴿أَظْلَمُ﴾:

للمشركون أعظم
جُرْمًا عند الله
بتكذيبهم
القرآن، وتنزله
من الرحمن

دلّت صيغة (أَفْعَل) في ﴿أَظْلَمُ﴾، وهي من أَفْعَلِ التَّفْضِيلِ، وهي في سياق التَّشْنِيعِ على المشركين الذين افتروا على الله الكذب أو كذبوا بآياته، أنه لا أحد أعظم جُرْمًا عند الله، ولا أَعْتَى ولا أكثر استشرافًا إلى عذاب الله من أولئك المفتريين على الله، المكذّبين بآياته بعد بيانها⁽¹⁾، ومن هنا يُقال: بأنه " لا أحد أظلم ممّن افترى على الله سبحانه كذبًا؛ لأنّ الكاذب إنّما يكذبُ ليدلّسَ على مَنْ أمامه، فهل يكذبُ أحدٌ على مَنْ يعلمُ الأمورَ على حقيقتها؟ لا أحدٌ بقادرٍ على ذلك، ومَنْ يكذب على البشر المساوين له يظلمهم، لكنّ الأظلم منه هو مَنْ يكذبُ على الله سبحانه"⁽²⁾.

سر استعمال الاسم الموصول (مَنْ) في: ﴿مِمَّنْ﴾:

دلالة الاسم
الموصول (مَنْ)
على المبالغة
والتعميم

جاء اسم الموصول (مَنْ) في قوله: ﴿مِمَّنْ أَفْتَرَى﴾ لأمرين اثنين: الأول: للمبالغة في وصف هذا الذي افتَرى على الله كذبًا بما حمّله من الشّناعة والقباحة؛ لخطورة ذاك الافتراء، فهو افتراءٌ على الله ﷻ، فإذا كان الافتراء على المخلوق شديد الشّناعة فكيف يكون الافتراء على الخالق ﷻ؟! والثاني: تعميم هذا الوصف لكلّ مَنْ صدّر منه هذا الافتراء، فهو يفيدُ كلّ أحدٍ افتَرى على الله كذبًا.

غرض حذف الفاعل مع الفعل الماضي: ﴿أَفْتَرَى﴾:

حذف الفاعل
لازدراء به
والتقليل من
شأنه

حُذِفَ الفاعل مع الماضي ﴿أَفْتَرَى﴾ للاستهانة والازدراء به، فهو أقلُّ شأنًا من أن يظهر أو يُذكر؛ لافتراءه على الله كذبًا أو تكذيبه بآياته، فهذا الافتراء هو أظلم الظلم.

دلالة التعبير بصيغة الافتعال في: ﴿أَفْتَرَى﴾:

عبّر النظم الجليل بصيغة الافتعال في قوله جلّ شأنه: ﴿أَفْتَرَى﴾؛

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز: 3/111.

(2) الشعراوي، تفسير الشعراوي: 10/5811.

للدلالة على الكلفة، ويفيد ذلك أنهم قد تعمّدوا الكذب على الله تعالى كذباً صريحاً مُتعمّداً بتكذيبهم للقرآن وحملهم على أنه من جهته ﷺ بقولهم: ﴿أَتَبْقُرْءَانٍ غَيْرَ هَذَا أَوْ بَدِّلُهُ﴾، وظلمهم الفادح، وتكذيبهم بآياته تعالى بقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾، وكأنّ بيان الله يقول لهم: إنّ قائل ما قلتُم مُّكذّب بآيات الله، وفاعل ما طلبتُم كاذب على الله، وكل ذلك منكم ظلّم مُتعمّد مقصود، فلذلك كان أظلم الظلم⁽¹⁾.

سرّ وضع الاسم الظاهر: ﴿الله﴾ موضع المضمر:

كان الأصل في قوله تعالى: ﴿افْتَرَى عَلَى اللَّهِ﴾ أنّ يُقال: افتري عليه، على تقدير: أنّ لا يكون هذا القرآن من عند الله كما زعمتم، ولكنه وُضِعَ هذا الظاهر، وهو لفظُ الجلالة ﴿الله﴾، مكانه تعميماً وتعليقاً للحكم بالوصف؛ للدلالة على خطورة ظلمهم وشناعة افتراءهم، فهو افتراء على الله المعبود بحقّ دون سواه⁽²⁾، ويكون النصّ على هذا إثبات أنّ القرآن الذي تلاه عليهم، هو من عند الله؛ لأنّه ليس بظالم، فضلاً عن أن يكون أظلم النّاس، إذ هو الصّادق الأمين الذي عرفتموه، وهو تنديد بالمشركين؛ فهم أظلم النّاس؛ لأنّهم افتروا على الله تعالى إذ أشركوا به غيره، وأيّ افتراء أكبر من ذلك، ثم هم قد سفّهُوا النّبِيَّ ﷺ، وافتروا عليه الكذب⁽³⁾.

نكتة تنكير لفظ ﴿كذباً﴾:

جاء لفظ ﴿كذباً﴾ نكرة ليصدّق على أيّ كذب كان؛ أي: على عموم الكذب على الله بأيّ وجه أو صفة أو قول أو فعل⁽⁴⁾، والكذب

كذّب المشركون
بالقرآن وبآياته،
فافتروا بذلك
الكذب على الله

الافتراء على
الله ظلّم
وتطاوّل على
مقام الألوهيّة
الأسمى

تنكير اللفظ
في الآية ليفيد
العموم،
ويصفّ قائلهم
الشؤوم

(1) الرّمخسريّ، الكشاف: 2/230، والبقاعيّ، نظم الدرر: 9/89، وأبو السّعود، إرشاد العقل السليم: 2/644.

(2) البقاعيّ، نظم الدرر: 9/89 - 90.

(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 7/3536.

(4) البقاعيّ، نظم الدرر: 9/89.

أسوأ أخلاق الإنسان، وهو مُستبشع في كلِّ الشرائع، ومُستكبر في كلِّ الأحكام الشرعيّة، والقوانين الوضعيّة، لكنّه إذا ارتبط بالافتراء على الله كان أبشع وأقبح، ولذلك لمّا طلب منه المشركون أن يكذب على الله، بأن يأتي بغير ما أنزل الله، أو أن يبدّله، ردّ عليهم بحزم وإنكار، واستعظم أن يقول على الله ما لم يأمره به؛ لأنّ ذلك يتنافى مع الإيمان، ناهيك عن النبوّة والرّسالة، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ

﴿١٠٥﴾ [التحل: 105].

دلالة الجمع بين لفظي «أفترى» و «كذباً»:

الجمع بين
لفظ الكذب
مع مرادفه،
يؤكد أنّه كذب
في ذاته، لا في
الإسناد فقط

جمَعَ النّظم الجليل بين لفظي الافتراء والكذب في قوله تعالى: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ مع أنّ الافتراء لا يكون إلّا كذباً؛ وذلك للإيدان بأنّ ما أضافوه إليه ضمناً، وحملوه ﷻ عليه صريحاً، مع كونه افتراءً على الله تعالى، هو كذبٌ في نفسه، فَرُبَّ افتراءٍ يكون كَذِبُهُ في الإسناد فقط، كما إذا أُسندَ ذنبٌ زيدٍ إلى عمرو، وهذا للمبالغة منه ﷻ في التّفادي عمّا ذُكرَ من الافتراء على الله (1).

دلالة الحرف: «أو»:

الافتراء
والتّكذيب
كلاهما ظلم
شديد

لَمَّا صرّح المشركون بنفي أن يكون القرآن من عند الله بقولهم: ﴿أَشْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا﴾، وأقام النّظم الكريم الحُجّة عليهم، بأنّ ذلك من عند الله، وأنّه ما يكون له أن يأتي به من تلقاء نفسه، فَرَعَ عليه أنّ المُفتري على الله كذباً والمُكذّبين بآياته كلاهما أظلمُ النَّاسِ لا أحدَ أظلمُ منهما، فجاء محلُّ «أو» على الوجهين بمعنى التّقسيم، وهو إمّا تَقْسُمُ أحوالٍ، وإمّا تَقْسُمُ أنواعاً (2).

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 2/644.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 11/124.

الفرق الدلالي بين ﴿كَذِبًا﴾ و ﴿كَذَّبَ﴾:

لَمَّا قَالَ الْمَشْرِكُونَ: ﴿أَنْتَ بِفُرْعَانٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ﴾ كَانَ فِي ضِمْنِهِ أَنَّهُمْ يَنْسُبُونَهُ إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا هُوَ اخْتِلَافٌ وَاخْتِلَافٌ وَتَرَدُّدٌ، فَبُولَغٌ فِي ظُلْمٍ مَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا، فَجَاءَ بِالمصدرِ لِيُعَبِّرَ عَنْ هَذِهِ الْمِبَالِغَةِ بِتَأْكِيدِ افْتِرَائِهِمْ عَلَى اللَّهِ، وَلَمَّا أَنَّ قَامَ الدَّلِيلُ الْقَاطِعُ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ، وَقَدْ كَذَّبْتُمْ بِآيَاتِهِ بَعْدَ بَيَانِهَا، وَقَدْ حَصَلَ مِنْكُمْ هَذَا التَّكْذِيبُ مِنْذُ بَدَايَةِ نُزُولِ الْقُرْآنِ بِالْوَحْيِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَلَمْ تَوَافِقُوا بِهَا وَكَذَّبْتُمْ مَا جَاءَكُمْ بِهِ مِمَّا لَا يَنْسَبُ عَقِيدَتَكُمْ الْوُثْنِيَّةَ وَأَحْوَالَكُمْ وَأَحْلَامَكُمْ الْمَخَالِفَةَ، جَاءَ بَيَانُ اللَّهِ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ بِصِيغَةِ الْفِعْلِ الْمَاضِي، وَعِنْدَ ذَلِكَ فَلَا أَظْلَمَ مِنْكُمْ كَذَلِكَ⁽¹⁾.

المجاورة بين
المصدر وفعل
التكذيب في قوله
(كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ)

دلالة جناس الاشتقاق: ﴿كَذِبًا﴾، ﴿كَذَّبَ﴾:

وَقَعَ الْجِنَاسُ الْاِشْتِقَاقِي⁽²⁾ بَيْنَ كَلِمَتَيْ ﴿كَذِبًا﴾ وَ ﴿كَذَّبَ﴾؛ لِأَنَّ أَصْلَ الْكَلِمَتَيْنِ وَاحِدٌ، وَلَكِنَّ ﴿كَذِبًا﴾ فِيهَا مِبَالِغَةٌ فِي الْمَعْنَى وَزِيَادَةٌ دَلَالَةٌ عَلَى مَا وَصَلَ إِلَيْهِ الْمَشْرِكُونَ مِنْ مِبَالِغَتِهِمْ فِي الْكُذْبِ، وَلِبَيَانِ أَنَّ هَذَا مَعَ كَوْنِهِ افْتِرَاءً عَلَى اللَّهِ هُوَ كَذِبٌ فِي نَفْسِهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى لَا يَظْهَرُ بِجَلَالَتِهِ وَقُوَّتِهِ إِلَّا فِي الْمَصْدَرِ ﴿كَذِبًا﴾ دُونَ الْفِعْلِ الْمَاضِي ﴿كَذَّبَ﴾⁽³⁾.

لفظ (كَذِبًا) أبلغ
في معناها من
لفظ (كَذَّبَ)،
وهما من
اشتقاق واحدٍ

بلغة الإخبار عن التكذيب ب: ﴿أَظْلَمُ﴾، ﴿افْتَرَى﴾، ﴿كَذِبًا﴾:

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ جَاءَ

تحريف ما أنزل
الله يجعل
الظلم والافتراء
والكذب في
بوتقة واحدةٍ

(1) أَبُو حَيَّانَ، الْبَحْرُ الْحَيْطُ: 26/6.

(2) الْجِنَاسُ فِي اللَّغَةِ: مُصَدَّرُ جَانِسٍ الشَّيْءِ بِالشَّيْءِ، أَيْ: شَاكِلُهُ وَأَتَّحَدَ مَعَهُ فِي الْجِنْسِ، وَمِنْهُ الْجَانِسَةُ وَالْتَّجْنِيسُ، وَيُقَالُ: هَذَا يَجَانِسُ هَذَا، أَيْ: بِشَاكِلِهِ. وَفِي الْإِصْطِلَاحِ: هُوَ اتِّفَاقُ اللَّفْظَيْنِ فِي وَجْهِ مَنِ الْوُجُوهُ مَعَ الْاِخْتِلَافِ فِي الْمَعْنَى، فَهُوَ مِنْ حَيْثُ الِضْمُونُ يَزِيدُ مِنَ الْاِنْسِجَامِ فِي الْعَانِي عَنْ طَرِيقِ الْأُسْلُوبِ السَّلِيلِ وَالْحَبِيبِ. وَأَمَّا جِنَاسُ الْاِشْتِقَاقِ: فَهُوَ نَوْعٌ مِنَ أَنْوَاعِ الْجِنَاسِ، وَيَعْنِي: أَنَّ يَكُونُ اللَّفْظَانِ لِهَمَا أَصْلٌ وَاحِدٌ فِي اللَّغَةِ، وَيَتَوَافَقَانِ فِي الْحُرُوفِ الْأَصْلِيَّةِ فِي التَّرْتِيبِ وَالْاِتِّفَاقِ فِي أَصْلِ الْمَعْنَى مَعَ اِخْتِلَافٍ فِي حَرَكَاتِهِمَا وَسُكُونَاتِهِمَا، وَهُوَ هُنَا مِثْلُ: (كَذِبًا) وَ(كَذَّبَ). يُنْظَرُ: ابْنُ مَنْظُورٍ، لِسَانُ الْعَرَبِ: (جِنْسٌ)، جَمِيلُ عِيَّاشٍ، نَمَازَجٌ مِنْ جِنَاسِ الْاِشْتِقَاقِ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، ص: 114 - 115.

(3) أَبُو الشَّعُودِ، إِرْشَادُ الْعَقْلِ السَّلِيمِ: 2/644.

اسم التّفْضِيلِ ﴿أَظْلَمُ﴾ في سياقِ الاستفهامِ، ثمّ جاءَ من بعده الفعلُ ﴿أَفْتَرَى﴾ تعبيرًا عن عظيمِ جُرمِ المشركين؛ بل عن أعظمِ فِرْيَةٍ اختلقوها، وهي إنكارُهم لتَنْزِيلِ اللَّهِ للقرآنِ على نبيِّه مُحَمَّدٍ ﷺ، ثمّ جاءَ المصدرُ ﴿كَذَبًا﴾ ليحدّدَ نوعَ الافتراءِ، فلمّا حصلَ منهم هذا الإنكارُ الشّنيعُ وجبَ وصفُهم بأنَّهم أَظْلَمُ النَّاسِ، وهذا الوصفُ لهم المقصودُ منه نفْيُ الكَذِبِ عن نفسه، وإيعازُ بِالْحَاقِ الوعيدِ الشّدِيدِ بهم حيثُ أنكَروا دلائلَ اللَّهِ، وأعظمَ معجزةً من معجزاته تعالى، وكذبوا بآياتِ اللَّهِ (1) ﷻ.

بلغة التّذيلِ في: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾:

قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ تذييلٌ، وموقعه يقتضي شمولَ عُمومِهِ للمذكورين في الكلام المُذَيَّل، ويقتضي أَنَّ أولئك مُجْرِمُونَ، وأنَّهم لَا يُفْلِحُونَ (2)، وهو تذييلٌ تعليليٌّ، فهو تعليلٌ لكونه لَا أَظْلَمَ مِمَّنْ افترى على اللَّهِ كذبًا أو كَذَّبَ بآياتِهِ، وإنَّ واسمها وجملته ﴿لَا يُفْلِحُ﴾ خبرها، و﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ فاعل (3)، فالجملَةُ تذكيرٌ بالعاقبة السّيِّئَةِ لهؤلاء الذين كَذَّبُوا بِالوَحْيِ، وآذوا الرّسولَ، وهم في نشوة القوّة، وسكرةِ المغالبةِ والمطالبةِ، لا يدركون ما سيؤولونَ إليه، ليلفت السّياقُ انتباهَهُم إلى أنَّهم مُجْرِمُونَ، وأنَّ المجرمينَ لَا يفلحون.

سرُّ التّوكيدِ بـ (إِنَّ)، واسميّةِ الجملةِ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾:

تأكيدُ الجملةِ بحرفِ التّأكيدِ (إِنَّ)، واسميّةُها ناظرٌ على عمومِ المجرمينَ للمخاطبين؛ لأنَّهم يُكْرَوْنَ أَنْ يكونوا من المجرمين (4)، و(المجرمون): هم الذين اجترموا من الكفر؛ أي: اكتسبوه، وتأكيدُ السّياقِ بجملةِ المؤكّداتِ يشيرُ إلى أَنَّ ذلك الأمرَ واقعٌ لا محالة، وأنَّ

شمولُ الإِجْرامِ
وعدمُ الفلاحِ
لِمَن كَذَّبُوا
بآياتِ اللَّهِ

تأكيدُ الآيةِ
شمولُ صفةِ
الإِجْرامِ، لجميعِ
المخاطبينِ
المُفْتَرِينَ

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 17/226، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/26.

(2) ابن عاشور، التّحريض والتّنوير: 11/124.

(3) درويش، إعراب القرآن وبيانه: 4/219.

(4) ابن عاشور، التّحريض والتّنوير: 11/124.

مَنْ ضَلَّ سَعْيُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَهُوَ يَظُنُّ أَنَّهُ يُحَسِّنُ صُنْعًا، سَيَجِدُ كُلَّ سَعْيِهِ فِي الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ آيَلًا إِلَى الْخَسْرَانِ، وَمُفْضِيًّا إِلَى الْبَوَارِ، وَبَيِّنَ الْقَرَارَ، وَالْعِبْرَةَ بِالْخَوَاتِيمِ.

نُكْتَةُ افْتِتَاحِ الْجُمْلَةِ بِضَمِيرِ الشَّانِ: ﴿إِنَّهُ﴾:

صُدِّرَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بِضَمِيرِ الشَّانِ فِي ﴿إِنَّهُ﴾ لِقَصْدِ الْإِهْتِمَامِ بِمَضْمُونِهَا، وَلِلتَّشْبِيهِ عَلَى خُطُورَةِ الْإِجْرَامِ وَبَيَانِ سُوءِ عَاقِبَةِ أَصْحَابِهِ⁽¹⁾.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِالْفِعْلِ الْمُضَارِعِ وَنَفْيِهِ: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾:

اسْتَعْمَلَ الْبَيَانُ الْإِلَهِيَّ صِيغَةَ الْفِعْلِ الْمُضَارِعِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يُفْلِحُ﴾؛ لِأَنَّ الْفِعْلَ الْمُضَارِعَ يُفِيدُ التَّجَدُّدَ وَالِاسْتِمْرَارَ، فَأَخْبَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى هُنَا أَنَّ الْمَجْرِمِينَ لَا يُمْكِنُ أَنْ يُفْلِحُوا، وَعَدَمُ الْفَلَاحِ مُسْتَمَرٌّ مَعَهُمْ مُصَاحِبٌ لَهُمْ فِي أَحْوَالِهِمْ كُلِّهَا، حَتَّى وَإِنْ تَرَاءَى لِبَعْضِ قَاصِرِي النَّظَرِ أَنَّهُمْ مُفْلِحُونَ فِي مَعَاشِهِمْ وَأُمُورِ دِينِهِمْ، فَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ مَجْرِمُونَ، يَأْكُلُونَ وَيَتَنَعَّمُونَ كَالْأَنْعَامِ، وَلَكِنْ مَثْوَاهُمْ النَّارُ وَبَيِّنَ الْمَصِيرَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ [محمد ﷺ: 12]، وَكَيْفَ لَا يَكُونُ هَذَا حَالَهُمْ وَمَصِيرُهُمْ، وَهُمْ قَدْ وَقَعُوا فِي أَظْلَمِ الظُّلْمِ؛ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِهِ.

العلاقة بين اشتقاق اللَّفْظِ، ودَلَالَتِهِ فِي سِيَاقِ الْآيَةِ:

الْفَلَاحُ: الْفَوْزُ وَصَلَاحُ الْحَالِ، فَيَكُونُ فِي أَحْوَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالْمَرَادُ بِهِ فِي اصْطِلَاحِ الدِّينِ: الْفَوْزُ بِالنَّجَاةِ مِنَ الْعَذَابِ فِي الْآخِرَةِ. وَالْفِعْلُ مِنْهُ: أَفْلَحَ، يُفْلِحُ؛ أَي: صَارَ ذَا فَلَاحٍ، وَإِنَّمَا اشْتَقَّ مِنْهُ الْفِعْلُ بِوَسْطَةِ الْهَمْزَةِ الدَّالَّةِ عَلَى الصِّيْرَةِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقَعُ حَدَثًا

ضَمِيرُ الشَّانِ
لِقَصْدِ الْإِهْتِمَامِ
بِمَضْمُونِ
الْجُمْلَةِ

عَدَمُ الْفَلَاحِ
مُسْتَمَرٌّ مَعَ
الْمَجْرِمِينَ،
وَمَصَاحِبٌ
لَهُمْ فِي جَمِيعِ
أَحْوَالِهِمْ

انْتِفَاءُ الْفَلَاحِ
بِعُمُومِهِ لِعُمُومِ
الْمَجْرِمِينَ،
وِخْصُوصًا مَنْ
ذَكَرَهُمُ السِّيَاقُ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/971.

قائماً بالذات؛ بل هو جنسٌ تحفُّ أفراده بمن قُدرت له⁽¹⁾، وهنا في قوله تعالى: ﴿لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾ نفْيٌ للفلاح، أي فلاحٍ في أي صورةٍ منه.

سُرُّ التَّعْبِيرِ بلفظ: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾، وعدم تحديدهم:

اختيارُ الأسلوبِ
الأكثرِ إقناعاً
للعقولِ،
باللطفِ لا
بالعنفِ

اخْتَارَ الأسلوبَ الَّذِي يُهْدَبُ وَيؤْلَفُ القلبَ، ولو كان عدوًّا مخاصماً، أو مبغضاً شائناً، مُتَجَانِفاً عن أسلوبِ التَّقْرِيعِ والتَّهْيِيجِ والصَّدَامِ، وهذا من الحكمةِ الجليَّةِ، حتَّى لا يستمرَّ الجدلُ بلا طائلٍ، ولذلك قال الحقُّ سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾، وهذا الأسلوبُ عامٌّ غيرُ مُقَيَّدٍ، وينطبقُ باعتباره حكماً على كلِّ الممارساتِ التي يشوبها الكذبُ، أو يخالطها الإفكُ، ممَّا يكونُ فيها الكذبُ على الله ورسوله ودينه، وتُطبَّقُ على كلِّ مَنْ يصدرُ منه ظلمٌ، وسياقُ الآيةِ يقولُ: "فإذا كان الظلمُ من جهتي فسوف يحاسبني الله عليه، وإن كان من جهتيكم فاعلموا قولَ الحقِّ سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ﴾، ولم يحدِّدْ مِنَ الْمُجْرِمِ، وتركَ الحكمَ للسَّامِعِ، كما تقول لإنسانٍ له معك خلافٌ: (سأعرضُ عليك القضيةَ واحكم أنت)، وساعةً تقوِّضُهُ في الحكم؛ فلن يصلَ إلَّا إلى ما تريد، ولو لم يكن الأمرُ كذلك لما عرضت الأمرَ عليه"⁽²⁾.

إِيثَارُ لَفْظِ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾:

لفظُ (المجرمون)
أوفى في الدلالةِ،
من حيث المعنى
ومن حيث
العموم

كَانَ الْأَصْلُ أَنْ يُقَالَ فِي ذيلِ الآيةِ: الكاذبون، جَرِيًّا على نَسَقِ السِّيَاقِ؛ أي: فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الكاذبون، لكنَّ بَيَانَ اللَّهِ تَعَالَى آثَرَ لَفْظِ ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ على لَفْظِ (الكاذبون) للدَّلالةِ على شناعةِ وعِظَمِ ظُلمِ المَفتَرينَ على اللَّهِ كَذِبًا أَوْ المُكذِّبينَ بِآيَاتِهِ، والتَّعْبِيرُ بِالْإِجْرَامِ هُنَا أَقْوَى وَأَشَدُّ مَنَاسِبَةً

(1) ابن عاشور، التَّحْرِيرُ والتَّنْوِيرُ: 11/124.

(2) الشَّعْرَاوِيُّ، تَفْسِيرُ الشَّعْرَاوِيِّ: 11/124.

للسِّيَاق، ثُمَّ إِنَّ لَفْظَ المَجْرِمِينَ - كما تقدَّم - عامٌّ يَصْدُقُ على المَكْذِبِينَ وَغَيْرِهِمْ مِمَّنْ يَحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا، وَيُرْتَكِبُونَ كِبَائِرَ الذُّنُوبِ، وَلَا يَتُوبُونَ مِنْهَا، فَهُوَ أَوْفَى لِلْعُمُومِ مِنْ لَفْظِ (الكَاذِبُونَ)، وَأَيْضًا لَشُمُولِ عُمُومِ الْمَجْرِمِينَ لِلْمُخَاطَبِينَ؛ لِأَنَّهُمْ يُنْكِرُونَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمَجْرِمِينَ⁽¹⁾.

دلالة (أل) في ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾:

جاءَ التَّعْبِيرُ بِ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ معرِّفًا بـ(أل) الدَّالَّةُ على الجِنْسِ؛ أي: جِنْسِ المَجْرِمِينَ، وَإِنْ كَانَ هُنَا مَعْهُودًا بِمَنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ بِحَسَبِ ظَاهِرِ السِّيَاقِ، لَكِنَّ إِسْنَادَ عَدَمِ الْفَلَاحِ إِلَيْهِ، يَقْتَضِي عُمُومَ عَدَمِ الْفَلَاحِ لِعُمُومِ الْمَجْرِمِينَ؛ أي: لَا يُفْلِحُ بِأَيِّ وَجْهِ مِنْ الْوُجُوهِ الْمَجْرُمُونَ، بِأَيِّ وَجْهِ مِنْ وَجُوهِ الْإِجْرَامِ، وَأَخْصَهُمْ مَنْ جَاءَ السِّيَاقُ بِذِكْرِهِمْ، وَهُمْ الَّذِينَ افْتَرَوْا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ أَوْ كَذَّبُوا بِآيَاتِهِ.

التَّشَابُهُ اللَّفْظِيُّ بَيْنَ آتِي يُونُسَ، وَالْأَنْعَامِ:

التَّشَابُهُ بَيْنَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧﴾﴾ [يونس: 17]، وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 21].

قَالَ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 21]، وَقَالَ فِي سُورَةِ يُونُسَ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾، وَخَتَمَ الْآيَةَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢١﴾﴾ [الأنعام: 21]؛ لِأَنَّ الْآيَاتِ الَّتِي تَقَدَّمَتْ فِي هَذِهِ السُّورَةِ عُطِفَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِالْوَاوِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَأَوْحَى إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَأَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا

عَدَمُ الْفَلَاحِ
ثَابِتٌ لِكُلِّ مُجْرِمٍ
مُنْتَهَكٍ لِحُرْمَاتِ
اللَّهِ

لَا أَظْلَمَ وَلَا
أَجْرَمَ مِمَّنْ
افْتَرَى عَلَى اللَّهِ
كَذِبًا، وَلَنْ يُفْلِحَ
فِي ظُلْمِهِ وَلَا
جَرِمِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/124.

تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾ [الأنعام: 19]، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ [الأنعام: 21]، وَخَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ ﴿٢١﴾ [الأنعام: 21]؛ لِيَكُونَ آخِرُ الْآيَةِ لَفْظًا لِأَوَّلِ الْآيَةِ.

وَأَمَّا فِي سُورَةِ يُونُسَ فَالآيَاتُ الَّتِي تَقَدَّمَتْ عَطَفَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ بِالْفَاءِ، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، ثُمَّ قَالَ: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ بِالْفَاءِ، وَخَتَمَ الْآيَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ أَيْضًا مُوَافَقَةً لِمَا قَبْلَهَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ ﴿٢٠﴾ [يونس: 13] فَوْصَلَهُمْ بَأَنَّهُمْ مُّجْرِمُونَ، وَقَالَ بَعْدَهُ: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ﴾ [يونس: 14]، فَخَتَمَ الْآيَةَ هُنَا بِقَوْلِهِ: ﴿الْمُجْرِمُونَ﴾؛ لِيُعْلَمَ أَنَّ سَبِيلَ هَؤُلَاءِ سَبِيلُ مَنْ تَقَدَّمَ لَهُمْ⁽¹⁾.

❁ الْفُرُوقُ الْمُعْجَمِيَّةُ:

الْكَذِبُ وَالْإِفْتِرَاءُ وَالْبُهْتَانُ:

الْكَذِبُ: هُوَ عَدَمُ مِطَابَقَةِ الْخَبَرِ لِلْوَاقِعِ، أَوْ لاعتقادِ الْمُخْبِرِ لَهَا عَلَى خِلَافٍ فِي ذَلِكَ. وَالْإِفْتِرَاءُ: أَخْصُ مِنَ الْكَذِبِ؛ لِأَنَّهُ الْكَذِبُ فِي حَقِّ الْغَيْرِ بِمَا لَا يَرْضِيهِ، بِخِلَافِ الْكَذِبِ، فَإِنَّهُ قَدْ يَكُونُ فِي حَقِّ الْمُتَكَلِّمِ نَفْسِهِ، وَلِذَا يُقَالُ لِمَنْ قَالَ: (فَعَلْتُ كَذَا وَلَمْ أَفْعَلْ كَذَا) مَعَ عَدَمِ صِدْقِهِ فِي ذَلِكَ: هُوَ كَاذِبٌ، وَلَا يُقَالُ: هُوَ مُفْتَرٍ، وَكَذَا مَنْ مَدَحَ أَحَدًا بِمَا لَيْسَ فِيهِ، يُقَالُ: إِنَّهُ كَاذِبٌ فِي وَصْفِهِ، وَلَا يُقَالُ: هُوَ مُفْتَرٍ؛ لِأَنَّ فِي ذَلِكَ مِمَّا يَرْضِيهِ الْمَقُولُ فِيهِ غَالِبًا. وَقَالَ ﷺ: ﴿أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾؛ لِزَعْمِهِمْ أَنَّهُ أَتَاهُمْ بِمَا لَا يَرْضِيهِ اللَّهُ سُبْحَانَهُ مَعَ نَسْبَتِهِ إِلَيْهِ، وَأَيْضًا قَدْ يَحْسُنُ الْكَذِبُ عَلَى بَعْضِ الْوُجُوهِ، كَالْكَذِبِ فِي الْحَرْبِ، وَإِصْلَاحِ ذَاتِ الْبَيْنِ، وَعِدَةِ الزَّوْجَةِ، بِخِلَافِ الْإِفْتِرَاءِ.

وَأَمَّا الْبُهْتَانُ فَهُوَ الْكَذِبُ الَّذِي يُوَاجَهُ بِهِ صَاحِبُهُ عَلَى وَجْهِ

(1) الْكِرْمَانِيُّ، الْبَرْهَانُ فِي تَوْجِيهِ مُتَشَابِهِ الْقُرْآنِ، ص: 106.

الْكَذِبُ عَدَمُ
مِطَابَقَةِ الْخَبَرِ
لِلْوَاقِعِ، وَفِي حَقِّ
غَيْرِكَ إِفْتِرَاءٌ،
وَمَعَ الْكَابَرَةِ
بُهْتَانٌ

المكابرة له، قال تعالى: ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَنًا عَظِيمًا﴾ (١٥٦) النساء: 156⁽¹⁾، والبهتان: هو الكذب الذي يبهتُ سامعهُ لفظاعته⁽²⁾.

الكذب والإفك:

الكذب: اسمٌ موضوعٌ للخبر الذي لا مُخبرَ له على ما هو به، وأصله في العربية: التَّقْصِيرُ، وسواءً أكانَ الكذبُ فاحشُ القُبْحِ أم غيرَ فاحشِ القُبْحِ. وأمَّا الإفكُ فهو الكذبُ الفاحشُ القُبْحُ، مثلُ الكذبِ على الله ورسوله أو على القرآن، ومثلُ قَذْفِ الْمُحْصَنَةِ وغير ذلك، ممَّا يَفْحُشُ قُبْحُهُ، وجاءَ في القرآن على هذا الوجه قوله تعالى: ﴿وَبَلِّ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾ (٧) [الجاثية: 7]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ﴾ [النور: 11]، وأصله في العربية: الصَّرْفُ، وفي القرآن: ﴿أَنِّي يُؤْفَكُونَ﴾ (٧٥) [الأنعام: 75]؛ أي: يُصَرَفُونَ عَنِ الْحَقِّ، وتُسمَّى الرِّيَاحُ: الْمُؤْتَفِكَاتُ؛ لأنها تَقْلِبُ الْأَرْضَ فتصرفُها عما عَهِدَتْ عليه، وُسِّمَتْ ديارُ قومِ لوطٍ ﷺ الْمُؤْتَفِكَاتُ؛ لأنها قُلِبَتْ بِهِمْ⁽³⁾. ولَمَّا كان المقصودُ في الآية بيانَ الادِّعاءِ الكاذبِ والتَّكْذِيبِ عبْرَ عن ذلك بالكذبِ والتَّكْذِيبِ دون (الإفك)؛ لأنَّه في سياق الحديثِ عَنِ الصَّرْفِ عَنِ الْحَقِّ.

الكذبُ الخبرُ
المخالفُ للواقع،
والإفكُ الكذبُ
الفاحشُ القُبْحُ

(1) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 449، والكفوي، الكلبيات: 1/249 - 250، 3/109، 4/74، والجرجاني، التعريفات، ص: 92.

(2) الزاغبي، المفردات: (بهت).

(3) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 540 - 541، والزاغبي، المفردات: (أفك)، والكفوي، الكلبيات: 3/109، والجرجاني، التعريفات، ص: 92.

عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

سنة الطبع: 1445هـ - 2024م

© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي

الطبعة الأولى: 2024م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:

مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع

القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-

الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2024.

مج. 19، 804 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك: 978-9948-768-16-6

يشتمل على ارجاعات ببلليوجرافية.

مج. 19: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2-القرآن، بديع 3-القرآن، بلاغة 4-القرآن - سور وآيات 5-القرآن-

ألفاظ أ-العنوان ب- مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).

قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي: 978-9948-768-16-6

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،

مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية: E

«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري

الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»